المدح النبوي ومضامينه في البيان الشعري الأندلسي نماذج مختارة

الكلمات المفتاحية : المدح _المدائح النبوية _ الخطاب الشعري

اسيا عبدالقادر علي عمراني
جامعة العربي التبسي _ الجزائر _ كلية اللغة والأدب العربي
ameraniassia@gmail.com

الملخص

يهدف هذا البحث الى التعريف بالمدائح النبوية في الشعر الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، من خلال مجموعة من الشعراء الذين أجادوا في ذلك من ناحية ، وباعتبارها تحتل مكانا مشرفا في ديوان شعرنا العربي ، وهي تلك المدائح التي صنفت من الأغراض الدينية ، واكتست رداء الصدق ، حيث كان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، هو الدافع اليها ، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت من الأغراض الدنيوية .

المقدمة

كانت الحياة الأدبية في المشرق والمغرب والأندلس موارة بالحركة والنشاط في القرن الثامن الهجري ، ففي الأندلس والمغرب لقى الأدباء تشجيعا كبيرا من رجالات الدولة الذين كان كثيرا منهم يقول الشعر ، ويتذوقه ، ويفتح لهم مجالسه ،ويناظرهم ، ويناقشهم، ويتخدوا منهم رؤساء لدواوين الانشاء ، ويستوزرهم ، وقراءة عميقة في كتب دلك العصر مثل الاحاطة والنفاضة والكتيبة الكامنة لابن الخطيب ، ونثير الجمان لابن الأحمر، والعبر لابن خلدون وغيرها ، تعطينا صورة واضحة عما كان يزخر به هذا القرن من الشعراء الذين كانت تتجاذبهم دول الأندلس والمغرب المتعددة المتناحرة الملأى بالاضطربات والفتن والصراعات ، فالمدائح النبوية تحتل مكانا مشرقا في ديوان شعرنا العربي ، واكتست رداء الصدق ، حيث كان حب سيد الخلق عليه الصلاة والسلام هو الدافع اليها ، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت من الأغراض الدنيوية دافعها الأول ، وعلى امتداد العصور التي تمتد بيننا وبين عصر النبوة الزاهي ، راح الشعراء ينثرون مدائحهم على أعتاب الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فهي اذن مدائح تميزت بطول الامتداد الزمني ، كما تميزت بالكثرة من حيث الكم أيضا ، اذ لايمكن حصر جميع مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم في عصر من العصور فضلا عن

حصر ما أبعه الشعراء طوال هذه الحقبة الطويلة ، وبهذا فأن المدائح النبوية تميزت بالكثرة والشمولية ، فقد حاولت الاحاطة بجوانب السيرة العطرة لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام ،وتقديمها في بيان شعري ، ومن المحطات التي توقف عندها الشعراء تعداد صفاته ، الخلقية والخلقية ، واظهار الشوق لرؤيته ، وزيارة قبره ، والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ، ونظم سيرته شعرا والاشادة بغزاواته وصفاته المثلى ، والصلاة عليه تقديرا وتعظيما .

وجاءت أهمية الموضوع في ابراز جانب الروح الدينية في القرن الثامن الهجري ، والرابع عشرالميلادي في الأندلس ، وكذا ابراز تلك العاطفة المشبوبة الصادقة المشبعة بالروح الصوفية الهائمة بحب الرسول صلى الله عليه وسلم ، من خلال فن المديح النبوي في مضمونه وشكله .

١_المديح في اللغة

المديح فن الثناء ولغة التقدير ومجال الفضائل والمثل تخليدا للقيم والأخلاق ، عرف عند العرب منذ القدم ، اذ كان يعبر عن روح العصر

عرفه ابن منظولر في لسان العرب :" المدح : نقيض الهجاء وهو حسن الثناء ، يقال : مدحته مدحة واحدة ومدحه يمدحه مدحا . هذا قول بعضهم ، والصحيح أن المدح المصدر ، والمدحة الاسم ، والجمع مدح ، وهو المديح والجمع المدائح والأماديح " [١]

" والمدائح : جمع المديح من الشعر الذي مدح به كالمدحة والأمدوحة ، ورجل مادح من قوم مدح ومديح وممدوح ، وتمدح الرجل : تكلف أن يمدح ، ورجل ممدح أي ممدوح جدا ، ومدح للمثنى لا غير، ومدح الشاعر وامتدح ، وتمدح الرجل بما ليس عنده : تشبع وافتخر . ويقال : فلان يتمدح اذا يقرظ نفسه ويثني عليها ، والممادح : ضد المقابح ".[٢]

" وتمادح القوم : مدح بعضهم بعضا ، وامتدح : اتسع ، المدحة جمع مدح ، والاسم من مدح ما يمدح به ، والمديح : جمع مدائح ، والأمدوحة : جمع أماديح : ما يمدح به ، الممادح ضد المقابح "

وهو أيضا " ذكر للشمائل والمناقب فنقول : مدحه مدحا أثنى عليه بما له من الصفات ، نابع عن عاطفة الاحترام ، والتقدير والتبجيل " [٣]

أما أساس البلاغة للزمخشري : " مدح : مدحه وامتدحه وممتدح وممدوح ، يمدح بكل لسان العرب تتمدح بالسخاء ، وهو يتمدح الى الناس أي يطلب مدحهم "[٤]

والمديح في اصطلاح الأدباء والنقاد غرض شعري جوهره الشكل ، والثناء والتنويه بمناقب الممدوح .

٢_ المديح في الاصطلاح

المدح كما ورد في المعاجم هو حسن الثناء ، ومن العسير أن نستدل على تاريخ محدد لاستخدام هذا المصطلح ، للدلالة على فن شعري بعينه له خصائصه ومميزاته ولغته وموضوعاته ، وذلك لان الميل على تقبل الناء غريزي في الانسان ، والمديح هو فن من فنون الشعر الغنائي يقوم على عاطفة الاعجاب ، ويعبر عن شعور اتجاه فرد من الأفراد أو جماعة أو هيئة ملك على الشاعر احساسه ، وأار في نفسه روح الاكبار والاحترام لمن جعله موضع مديحه ، يقول الدكتور بدوي طبانة " منذ أن عرفوا تلك الطبيعة في الانسان اتخذوها سببا الى الأقوياء ووسيلة الى أصحاب السلطان ليحتموا بقوتهم ويحيوا في ظلال نعمتهم ، وأولئك يمدون لهم في حبل العطاء ليشيعوا محامدهم في الناس فيمتد سلطانهم ويسبق ذكرهم "[٥]

ونظرة المادح الى الممدوح تشترك مع الناس جميعا في النظر الى الزعيم والقائد والوجيه والغني ، ووالأمير نظرة خاصة فيها الكثير من الاجلال والاكرام ؛يعبر فيها صاحبها عن ذاته بما يتوفر لديه من ضروب القول والحديث والبيان شعرا ونثرا .

"ولسنا ندري كيف جاءت المدائح الأولى عند الانسان الأول ، ولكن النقوش القديمة تحمل على صفحاتها الحمد والثناء ، لأشخاص وجماعات ، وتشيد بالقواد أو الملوك وتتحدث عن انتصاراتهم أو مواهبهم ، وتمنحهم ألقابا وصفات تسمى في عرفنا اليوم ،مدائح ، فقد نشأ الانسان على الخوف من القوة والبطش ، فلذلك رأيناه يمجد البحر والرعد والأسد والمطر والشمس والقمر ، والنار ويتوجه اليها خاضعا خاشعا مبديا اعجابه ، وسرعانما اكتشف فكرة الاله ، فجعل لكل شيئ الها في بادئ الأمر ، ثم توجه الى الألهة بصلواته وعباداته ، وتضرعاته ، فغدت هذه كلها مدائح ، الى أن اكتشف فكرة الاله الواحد ، فأصبحت مدائحه صلاة " [٦]

ويعد المديح من الفنون الشعرية عند العرب رافق الشعر منذ نشأته الألى ، فعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية من التبديل الذي أصاب الشعر من حيث المفاهيم والمقاييس ، فان المديح لم يغب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر " بل ظل هو الأصل وسائر الفنون الشعرية هي الفرع ، يتناوله الشعراء ويصرفون اليه كل عناية واهتمام كانه استقر في أذهانهم أن الشاعر خلق ليكون مداحا ، فاذا نظم شعرا في غير المدح كان كالرامي الذي يرمي سهاما طائشة بعيدة عن اطار هدفها ، فحلم كل شاعر أن يسخر عبقريته في هذا الاتجاه فيجعل شعره بابا للرزق ومفتاحا للثروة ، الى أن طبع الأدب العربي بطابع المديح وبات من الصعب أن نعثر على شاعر عربي من العباقرة لم يصطنع المديح لدرجة أن امتلأت الدواوين بهذا اللون ، وغدت قصائدها تشكل القسم الغالب في نتاج الشعراء "[٧]

٣- المديح النبوي نشأته وتطوره

ان المدائح النبوية فضلا عن أهميتها الابداعية كنمط جوهري في أنماط الشعر العربي ، تعد بمثابة خيوط نورانية تصل ماض الأدب العربي بحاضره ، فهي لون أدبي خاص ، ينفرد بأنه عميق الأصالة ، قادؤر على الاستفادة من مستجدات العصر والمذاهب الأدبية الوافدة والمستحدثة من دون أن يتغير طابعه الأساسي ، ومن دون أن يفتقد جذوره وعراقته وملامحه المميزة ، ولاشك في أن المدائح النبوية قد تطورت ؛شأنها شأن سائر الأنماط الأدبية ، وقد ساهم في تطويرها وانضاجها ، دخول شعراء كبار الى ميدان الانشاد الديني والمديح النبوي عبر عصور مختلفة ؛بداء بحسان بن ثابت وكعب بن زهير ومرورا بالشريف الرضي والبويصري .

أول ما ظهر من شعر المديح النبوي ما قاله عبد المطلب ابان ولادة محمد صلى الله عليه وسلم ، اذ شبه ولادته بالنور والاشراق الوهاج الذي أنار الكون سعادة وحبورا ، يقول عبد المطلب :

وأنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نخترق [٨]

وتعود أشعار المديح النبوي الى بداية الدعوة الاسلامية مع قصيدة " طلع البدر علينا " ، وقصائد شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير صاحب اللامية المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفذ مكبول [9]

وقد استحقت هذه القصيدة المدحية المباركة أن تسمى بالبردة النبوية ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كسا صاحبها ببردة مطهرة ، تكريما لكعب بن زهير وتشجيعا للشعر الاسلامي الملتزم الذي يدافع عن الحق ، وينصر الاسلام وينشر الدين الرباني ونستحضر في هذا قصيدة الدالية التي مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمد وعادك ما عاد السليم المشهدا[10]

ومن أهم قصائد حسان بن ثابت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، عينيته المشهورة في الرد على خطيب قريش عطارد بن حاجب :

ان الذوائب من فهر واخواتهم قد بينوا سنة للناس تتبع [11]

ومن أهم شعراء المديح النبوي في العصر الأموي الفرزدق ، ولاسيما في قصيدته الرائعة الميمية في مدح زين العابدين والتي نوه فيها بال البيت واستعرض سمو أخلاق النبي الكريم وفضائله الرائعة ويقول في مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم[12]

وقد ارتبط مدح النبي صلى الله عليه وسلم بمدح أهل البيت وتعداد مناقب بني هاشم وأبناء فاطمة كما وجدنا ذلك عند الفرزدق والكميت الذي قال في بائيته :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشوق بلعب[13]

كما يندرج في هذا النوع أيضا تائية الشاعر دعبل الخراعي التي مدح فيها أهل البيت قائلا :

مدارس ايات خلت من تلاوة ومنزل حي مقفر العرصات [14]

ويذهب الشريف الرضى مذهب التصوف في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكر مناقب أهل البيت وخاصة أبناء فاطمة الذين اتخدوا مرتبة كبيرة من التقوى والمجد كما في داليته :

شغل الدموع عن الديار بكاؤنا لبكاء فاطمة على أولادها [15]

ويقول أيضا في لاميته الزهدية المشهورة التي مطلعها :

راحل أنت والليالي نزول ومضر بك البقاء الطويل [16]

ويبقى البوصيري الذي عاش في القرن السابع الهجري من أهم شعراء المديح النبوي ومن المؤسسين الفعليين للقصدية المدحية النبوية ، والقصيدة المولدية كما في قصيدته

الميمية التي مطلعها :

امن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من اضم [17]

وقد عورضت هذه القصيدة من قبل الكثير من الشعراء القدامى والمحدثين والمعاصريين ، ومن أهم هؤلاء الشعراء ابن جابر الأندلسي في ميمته البديعية التي استعمل فيها المحسنات البديعية بكثرة في معارضته الشعرية التي مطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم [18]

ومن الشعراء الذين طرقوا غرض المديح النبوي الشاعر ابن نباتة المصري فقد ترك لنا خمس قصائد في المديح النبوي كهمزيته التي مطلعها :

شجون نحوها العشاق فاءوا وصب ماله في الصبر راء

ورائيته التي مطلعها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضا تتسعر

وعينيته التي مطلعها :

يا دار جيرتنا بسفح الأجرع ذكرتك أفواه الغيوث الهمع [19]

والممية التي مطلعها :

أوجز مديحك فالمقام عظيم من دونه المنثور والمنظوم [20]

٤_ موضوعات ومضامين شعر المديح النبوي

لقد تنوعت الموضوعات والمضامين التي عالجت قصيدة المدح النبوي ، فنظم الشعراء قصائد في وصف ماثر الرسول صلى الله عليه وسلم ومناقبه ومعجزاته ، وقصائد يتشوقون فيها الى زيارة مقامه الكريم ، والتبرك باثاره الكريمة ، لكن هذه القصائد تتصل ببعضها اتصالا وثيقا لأنها تدور جميعها حول موضوع واحد هو مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

٤_١ _ مدح وتعظيم حب النبي صلى الله عليه وسلم

حي يقول الشاعر بتعداد صفات النبي صلى الله عليه وسلم ، وماثر ويسعى الى تتبع تلك الصفات التي تحل في تشكيل شخصيته على نحوما نجده في دالية ابن الجنان المرسي في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهي تحمل أثر الحنين اليه منه قوله :

سلام على من جاء بالحق والهدى ومن لم يزل بالمعجزات مؤبدا
سلام عليه ان نفسي مشوقة اليه فهل يدني اشتياقي أبعدا[21]

فابن الجنان عرف بمدحه للرسول ، كما عرف بشاعر المديح النبوي ، لدى الكثير من المؤرخين والنقاد ، واطلقت على قصائده شعر النبويات ، ومنه قصيدته الجميمية التي تحدث فيها عن ركب الحجيج الذاهب الى مكة يقول :

فمالي لأمالي سوى حب أحمد وصلت له من قرب قلبي وشايجا
عليه سلام الله من ذي صبابة حليف شجا يكنى من البعد ناشجا
ولو أنصفت أجفانه حق وجده سفكن دماء للدموع موازجا [22]

والأمر لا يختلف مع ابن جبير الذي ظل على حنين مستمر الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يهنأ له بال حتى يرى تلك المشاهد التي تبعث على الحنين والشوق يقول :

أقول وقد دعا للخير داع حننت له حنين المستهام
ولا طابت حياة لي اذا لم أزلر في طيبة خير الأنام
وأهديه السلام وأقتضيه رضا يدني الى دار السلام[23]

أما أحمد بن محمد المعروف بابن جزي الكلبي فنجده في قصيدة يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

ومنذ وثقت نفسي بحب محمد هصرت بغصن ذي شماريخ ميال
ألا ليت شعري هل تقول عزائمي لخيلي كري كرة بعد اجفال
فأنزل دارا للرسول نزيلها قليل هموم ما يبيت بأوجال
فطوبى لنفس جاورت خير مرسل بيثرب أدنى دارها نظر عالي
ومن ذكره عند القبول تعطرت صبا وشمال في منازل قفال
جوار رسول الله مجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي
أبان سبيل الرشد اذ سبل الهدى يقلن لأهل الحلم ضلا بتضلال
لأحمد خير العالمين انتقيتها ورضيت فذلت صعبة أي اذلال [24]

والناظر لهذه الأبيات يلمس الحب والحنين والشوق للرسول صلى الله عليه وسلم .

أما محمد بن يحي الغساني فيصور حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، من خلال مدحه وتعظيمه ، يقول :

معاهد شرفت بالمصطفى فلها من فضله شرف تعلو مراتبه
محمد المجتبى الهادي الشفيع الى رب العباد أمين الوحي عاقبه
أوفى الورى دمما أمساهم همما أعلاهم كرما جلت مناقبه
هو المكمل في خلق وفي خلق زكت حلاه كما طابت مناسبه
جاءت تبشرنا الرسل الكرام به كالصبح تبدوا تباشيرا كواكبه
تطابق الكون في البشرى بمولده وطبق الأرض أعلاما تجاوبه
له مقام الرضى المحمود ساهده في موقف الحشر اذ نابت نوائبه
والرسل تحت لواء الحمد يقدمها محمد أحمد السامي مراتبه
له الشفاعات مقبولا وسائلها اذا دهى الأمر واشتدت مصاعبه
والحوض يروي الصدى من عذب مورده لا يشتكي غلة الضمان شاربه
محامد المصطفى لا ينتهي أبدا تعدادها هل يعدالقطر حاسبه
فضل تكفل بالدارين يوسعها نعمى ورحمى فلا فضل يناسبه
حسبي التوسل منها بالذي سمحت به القوافي وجلتها غرائبه
ثم الصلاة على خير البرية ما سارت اليه بمشتاق ركائبه[25]

لقد جعل الشعراء موضوع التحدث عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم قلائد في مدائحهم ، فقد فقد راحوا يسردون معجزاته في أساليب تغلب عليها التقريرية والحب الخاص ، والاعتزاز بصانع الملحمة الاسلامية التي لامثيل لها في التاريخ القديم والحديث والمستقبل ، فحديث شعراء الأندلس عن معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم لا تكاد تخلو منه مدحة أو قصيدة ولوكانت الاشارة عابرة.

٤_٢_ معجزات النبي صلى الله عليه وسلم

والمعجزة هي أحد مظاهر النبوة فما من نبي الا وأيده الله تعالى بما يثبت نبوته وصحة رسالنه ، فاختص الله تعالى كل نبي بمعجزة خاصة أو معجزات ، وقد ذكرت ي القران الكريم ، الذي يعد معجزة ، اذ أن الله تحدى به العرب فعجزوا على أن يأتوا بمثله ، " فالقران الكريم باعجازه هو اثبات لقدرة الله تعالى واثبات عجز الخلق عن معارضته ".[26]

قال الله تعالى " وان كنتم في ريب مما نزلنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين"[27]

وهذا ابن حزم الأندلسي يعرض في قصيدة طويلة يزيد عدد أبياتها عن ثمانين بيتا ، تحدث في بدايتها عن نعم الله وكونه ، وصحة نبوته صلى الله عليه وسلم يبدأها بقوله :

لك الحمد يارب والشكر تم لك الحمد ما باح بالشكر قم
لك الحمد في كل ما حالة فقد خصني منك من فضل وعم[28]

وأخذ يعد المعجزات بقوله :

وأرسل مرسله بالهدى على ما قضاه وما قد حتم
محمد المصطفى بالكتاب به أنبياء الهدى وقد ختم
فشق لنا القمر المستنير بحضرة راضين أو من زعم
وأبدى الينابيع عن كفه فأروي به الجيش والجيش حم
وأعجز في نظم قرانه أولى حضر وبداة الخيم
ودان الملوك لاياته خلاف التكاذيب ممن زعم[29]

فهو يشير الى معجزة انشقاق البدر المنير ليلة مولده ، وتفجر الماء من بين أنامله وارتواء الجيش ومن كان من الصحابة ظمان ، وختم ذلك بذكر معجزة القران العظيم الكبرى الذي أخرس ببيانه البداة والحضر ، وذل له الجبابرة من ذوي السلطاني الفاني ، بأسلوب خال من التعقيد والغرابة والابهام ، اللذاين لا يوصلان الى المراد.

٤_٣ التشوق لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم

لقد طرق الشاعر الأندلسي هذا الجانب ، وجاء حنينه الى الرسول صلى الله عليه وسلم صادقا ، ومعبرا من خلال مدحه والثناء عليه والتشوق الى زيارة قبره الشريف ، ونجد ذلك مثلا في أشعار أبي الفازازي ، حيث عبر عن حنينه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وتظهر شعوره بالحزن من خلال تخلفه عن زيارة قبره الشريف .

يا سيد الرسل المكين مكانه ومقدم وهو الأخير زمامه
ناداك عبد أخرته ذنوبه والشوق تلفح قلبه نيرانه [30]

ويمثل لحد الرسول صلى الله عليه وسلم أحد المعالم عند الشاعر الأندلسي ، يتبرك به ويتمنى زيارته ، لأنه يحوي أشرف خلق الله ، وهذا يدل على أن قبر النبي دليل على حنينهم وشوقهم اليه ، فتجدوا من الشعراء الذين حنوا واشتاقوا الى قبر الرسول ابن الأبار يقول :

يا زائرين القبر قبر محمد بشرى لم بالسبق في الزوار

فوزوا بسبقكم وفوهوا بالذي حملتم شوقا الى المختار [31]

ويورد أبو العباس بن العريف أبياتا يقول فيها :

شدوا الرحال وقد نالوا المنى بمنى وكلهم بأليم الشوق قد باحا

راحت ركائبها تندى روائحها طيبا بما طاب ذاك الوفد أشباحا

نسيم قبر المصطفى لهم راج اذا سكروا من أجله فاح

يا راجلين الى المختار من مصر زرتم جسوما وزرنا نحنوا أرواحا

انا قمنا على شوق وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راح[32]

هي صورة جميلة تغللها نفثة صوفية ، لذات حزينة وقفت ترقب عن كثب ركب الحجاج ينطلق مع الفجر الندي الى البقاع المقدسة ، الى يبوح الكل بما أجتنه الضمائر من أليم الشوق الى قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ويظهر أن حال الشعراء الأندلسيين في الشوق والحنين ، كحال العشاق ترى أعينهم تفيض من الدمع حنينا وشوقا الى اللقاء ، فنفوسهم تذهب حسرات ودموعهم تنهل غزارا ، خوفا من الفراق ، يقول أحمد بن الصقر الخزرجي في وداع القبر الكريم :

حسب المحب من المحب سلام يقضي به يوم الوداع ذمام

رحنا وروع البين يخرس نطقنا ومن الدموع اشارة وكلام

يا أرض يثرب لا عداك غمام أنت المنى لو تسعف الأيام

للأرض في تلك العراص عرامة مضمونها كلف بها وغرام

قبر تضمن أعضاما تعظيما عنه يصح الدين والاسلام

وردت بها نفسي المشوق مناهلا كلا المناهل بعدهن حرام[33]

أما ابن جبير فيصور لحظات وصوله الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ،وما يتخلجه من شوق وحنين ، وقد غلبه الدمع من فرط الشوق والحنين يقول :

ولم حللنا فناء الرسول نزلنا بأكرم مجد جوارا

وحين دنونا لفرض السلام قرنا الطرف الا انكسارا

ولا يظهر الوجد الا اكتتاما ولا نلفظ القول الا سرارا

سوى أننا لم نطق أعيينا بأدمعها غلبتنا انفجارا

وقفنا بروضة دار السلام نعيد السلام عليها مرارا
ولو لا مهابته في النفوس لثمنا الثرى والتزمنا الجدارا
قضيتنا بزورته حجنا وبالعمرتين ختمنا اعتمارا[34]

حيث يصور مشهد السكينة والهدوء والوقار ، مهابة واجلالا لأشرف الخلق أجمعين .

أما ابن الجنان الأنصاري فيقول :

فوا حربا لاح الصباح لمبصر وقلبي لم يبصر سوى الليل اذ سجا
لعل شفيعي أن يكون معا جلا لداء ذنوب بالشفاء معالجا
فينشقني بيت الاله نوافحا ويعبق لي قبر النبي نوافحا
فمالي لامالي سوى حب أحمد وصلت له من قرب قلبي وشايجا [35]

فهو يرى في زيارته له تكفيرا لذنوبه متمنييا زيارة قبره المريم العظيم .

ـ٤ـ الحنين والشوق الى المرابع النبوية

حيث ينضوي هذا اللون من الشعر ضمن المدائح النبوية ، لأن الشعراء غالبا ما يربطون بين الرسول الكريم وبين الحديث عن الأماكن المقدسة باعتبار أن الحديث عن مكة أو المدينة انما هو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو من أكثر الألوان علوقا بقلب الأندلسيين .

يقول في ذلك ابن عربي يتلهف على الكعبة ويزداد شوقا اليها وهو يطوف حولها :

اذا تذكرت أسراري ومشهدها فيها تحركني للبين أشواق
فالروح تائهة والناس والهة والقلب محترق والدمع مهراق[36]

ويعتبر ابن جبير أكر تعلقا وحنينا الى الديار المقدسة ، حيث حن الى زيارة المساجد الثلاث ، وهي المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الأقصى ، مشبها نفسه بالطائر يقول :

طال شوق الى بقاع ثلاث لا تشد الرحال الا اليها
أن للنفس في سماء الأماني طائرا لا يحوم الا عليها
قص منه الجناخ فهو مهيض كل يوم يرجو الوقوع لديها[37]

ويعتبر ابن الجنان أكثر شعراء المديح النبوي ، فقصائده تعبر عن الحنين الى الديار المقدسة ، يقول :

ألا ليت شعري للضرورة هل أرى الى الله والبيت المحجب خارجا
له الله من ذي كربة ليس يرتجى لمرتحل يوما سوى الله فارجا [38]

حيث يظهر الشاعر مدى أسفه من تخلفه عن ذلك الركب ، فقد علل تعذر ذهابه بكثرة ذنوبه وخطاياه ، فامتزج حنينه الى البيت الحرام بذلك الحزن الذي خيم عليه حيث أظلمت الدنيا في وجهه ، وصار لا يبصر سوى الظلام ، يقول :

وقد أسهمت شتى المسالك دونه فلا نهج يلقى فيه الله ناهجا
يخوض بحار الذنب ليس يهابها ويسعق ذعرا أن يرى البحر هائجا
فوا حربا قدلاح الصباح لمبصر وقلبي لم يبصر سوى الليل اذ سجا [39]

ويظهر ابن الأبار كأحد الشعرا الذين انتابهم الشعور بالغربة ، وتمنى الوصول الى تلك الديار ، حيث عبر عن تجربة شعورية أحس بها أغلب الأندلسين ، والشعراء منهم بخاصة ، يقول أحد الباحثين :" وشعر الأبار في المديح والشوق الى زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقارن بما كتب في الموضوع من مدائح وتشوقات ، ولكنه مع ذلك شعر منبعث عن اخلاص وحب صميم ، شعر كتب في وقت شعر ابن الأبار بالحاجة الى من يعتمد عليه ومن يلجأ ليحميه ، ويضمن له السلامة ".[٤٠]

وتحتل طيبة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة كبيرة في قلوب الشعراء الأندلسين وقد ورد ذكرها والشوق اليها في الكثير من قصائدهم وهاهو ابن الأبار يظهر شوقه وحنينه اليها ويتمنى أن يحظى بزيارتها ، يقول :

لو عن لي عون من المقدار لهجرت للدار الكريمة داري
وحللت أطيب طينة من طيبة جارا لمن أوصى بحفظ الجار[41]

ونرى عند ابن جبير الذي اشتد حنينه الى الديار المقدسة ، ومدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ يرى أن السعادة قد ضمنت لكل من نال الوصول اليها ، وحج بيت الله ، وقضى مناكسه ، وحط عن النفس ذنوبها ، يقول :

هنيئا لمن حج بيت الهدى وحط عن النفس أوزارها
وان السعادة مضمونة لمن حج طيبة أو زارها[42]

أما مالك بن المرحل فيخاطب أهل طيبة الذين جاوروا قبر الرسول صلى الله عليه

وسلم ، فلهم نيل الفضل الكبير من الله تعالى ، حيث نلمس أثر حنين الشاعر الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتلهفه الى زيارة تلك الأماكن ، يقول :

يا أهل طيبة طاب العيش عندكم جاورتم خير مبعوث من الأمم

عاينتم جنة الفردوس عن كثب في مهبط الوحي والايات والحكم[43]

ويذكر حازم القرطاجني في قصيدته الحجازية التي ضمنها اعجاز أبياتها معلقة امرئ القيس مدى شوقه وحنينه الى المدينة ومن يسكنها أي الرسول صلى الله عليه وسلم ، يقول :

لعينيك قل ان زرت أفضل مرسل قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل

وفي طيبة فانزل ولا تغش منزلا بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وزر روضة قد طالما طاب نشرها لما نسجتها من جنوب وشمأل[44]

وقال ابن عربي يذكر المدينة المنورة والمسجد النبوي بها ويذكر فضل رسول الله وذكره الذي رفعه الله في قوله سبحانه وتعالى " ورفعنا لك ذكرك ".[45]

يا حبذا المسجدمن مسجد وحبذا الروضة من مشهد

وحبذا طيبة من بلدة فيها ضريح المصطفى أحمد

صلى عليه الله من سيد لولاه لم نعلم ولم نهتد

قد قرن الله به ذكره في كل يوم فاعتبر ترشد

عشر خفيات وعشر اذا أعلن بالتأذين في المسجد

فهذه عشرون مقرونة بأفضل الذكر الى الموعد[46]

يمدح ابن عربي مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ، ويمدح الروضة التي بين القبر والمنبر وهي التي قال فيها الرسول صلى الله عليه وسلم " مابين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة " ، وقد أراد أيضا ما يشير اليه المنبر من دعوة الخير ، وما يشير اليه القبر من عظمات ، فكأن المشهد ممدوح لمكان النبي فيه ، ولأن الواقف ملب للدعوة متعظ بالعبرة ، وليس أعظم دعوة من الاسلام ، ولا أكبر عظة من الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما ابن زمرك فيمزج حنينه وشوقه من خلال جمعه بين مدينة طيبة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول :

يؤمون من قبرالشفيع مثابة تطلع منها جنة ذات أفنان

اذا نزلوا من طيبة بجواره فأكرم مولى ضم أكرم ضيفان
بحيث علا الايمان وامتد ظله وزان حلى التوحيد تعطيل أوثان
مطالع أيات ، مثابة رحمة معاهد أملاك ، مظاهر ايمان
هناك تصفو للقبول موارد يسقون منها فضل عفو وغفران[47]

٤ _٥ التسول الى النبي بأساليب الرجاء لنيل الشفاعة في الاخرة

لقد قال الشعراء قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم أو الحنين الى مرابعه ، وهذا قصد نيل العون في الدنيا والشفاعة في الاخرة .فالشاعر الأندلسي يتضرع الى الله تعالى أن يصل الى تلك الرحاب الطاهرة ذ، وأن ينال شفاعة رسوله الكريم يوم القيامة ، متمنيا زيارةقبره الشريف ، أو مكتفيا بارسال السلام مع الزائرين ، يقول ابن الأبار :

يا زائرين القبر قبر محمد بشرى لكم بالسبق في الزوار
أدوا السلام سلمتم وبرده أرجو الاجارة من ورود النار[48]

أما أبو زيد الفازازي فيمضي في تصوير حنينه الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مظهرا ذلك من خلال حبه له فيرى بأن محبته تقود الى رضا الله ، وتأخذ الأبيات التالية من القصيدة منحى الشعور بالذنب أيضا ، ويرى أن روحه متعلقة بزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي يأمل شفاعته يقول :

لكن حبك شافع مشفع يغشى محبك يمنه وأمانه
وعليك يا خير الأنام تحية كالروض صافح روحه ريحانه
ممن يزورك خطه وكلامه اذا لم يزرك لذنبه جثمانه[49]

اما ابن حبير فيقول في قصيدة تتألف من ثلاثين بيتا ، يتجلى فيها أثر الحنين والشوق الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثناء عليه ، وختمها بالدعاء والرجاء بنيل شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول ونكتفي ببيتين :

عسى لحظة منك لي في غد تمهد لي في الجنان القرارا
فما ظل من بمسراك اهتدى ولا ظل من بذراك استجارا [50]

خاتمة

من خلال ما سبق نلخص الى أن المدائح النبوية تحتل مكانا مشرفا في ديوان شعرنا العربي ، واكتست رداء الصدق حيث كان حب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، هو الدافع اليها ، فاختلفت بذلك عن غيرها من المدائح التي كانت الأغراض الدنيوية دافعها الأول .

كما أنه وعلى امتداد العصور التي تمتد بيننا وبين عصر النبوة الزاهي راح الشعراء ينثرون مدائحهم على أعتاب الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فهي اذن مدائح تتميز بطول الامتداد الزمني ، وتميزت بالكثرة من حيث الكم أيضا ، اذ لا يمكن حصر جميع مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ، في عصر من العصور فضلا عن حصر ما أبدعه الشعراء طوال هذه الحقبة الطويلة .

وبالتالي فان المدائح النبوية تميزت بالكثرة والشمولية ، ومن المحطات التي توقف لديها الشعراء تعداد صفاته الخلقية والخلقية ، واظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره ، والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى عليه وسلم .

كما يظهر الشاعر المادح مدى تقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية ، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه ، وينتقل الى الرسول صلى الله عليه وسلم طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة .

وهذا النوع من المديح لا يشبه سابقيه من ذلك المديح الذي كان يسمى بالمدح التكسبي ، أو التملق الوجه الى السلاطين والأمراء ، وانما هو مدح خاص بأفضل خلق الله محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويتسم بالصدق والمحبة والاخلاص والتضحية والانغماس في التجربة العرفانية والعشق الروحاني .

Abstract

The praise of the Prophet and its implications in the Andalusian poetic statement selected models

Keywords: praise _ prophetic praises _ poetic discourse

Asia Abdelkader Ali Omrani

Larbi Tebessi University - Algeria - Faculty of Arabic Language and Literature

key words :Praise _ Prophetic praises _poetic discourse.

This research aims to introduce madaih in Andalusian poetry in the fifth hidjer century , they occupie a great place in the diwan of the Arab lauguage , those are classified praise from mundane purposes , but it assumed honesty , where i twas master while love is the motive **صلى الله عليه وسلم**, of creation .

الهوامش

[١] ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، مادة : مدح ، ج١٦ ، دار صادر ، ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٩٥٥م.

[٢]المصدر نفسه ، مادة : مدح .

[٣]المنجد في اللغة والاعلام ، دار المشرق ، بيروت لبنان ، ط٢١، ١٩٦٠، ص : ٧٥١

[٤]مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، دار المعارف ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٧٣ م، ص ٨٥٧.

[٥] الزمخشري ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر ، ، أساس البلاغة ، تحقيق : عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، دت ، ٣٢٤.

[٦] بدوي طبانة : قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ، مطبعة مخيمر ، القاهرة ، ١٩٥٤م ، ص ٣٩

[٧]اميل ناصف ، أروع ماقيل في المديح ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، دت ، ص٨_٩

[٨]المصدر نفسه ، ص ١١

[٩] ابن الأثير عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج١، تحقيق : عادل أحمد الرفاعي ، بيروت لبنان ، ط١، ١٩٩٦م، ص١١٩

[١٠] كعب بن زهير : الديوان ، قراءة د. مصطفى يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت لبنان ، ص ٨٤

[١١] الأعشى : الديوان ، ص ٤٥

[١٢] حسان بن ثابت الأنصاري ، الديوان ، ص ٢٣٢

[١٣] الفرزدق : الديوان ، مجلد ٢،دار صادر ، ص١٧٨

[١٤] الكميت بن زيد ، الهاشميات ، ص ٢٧

[١٥] دعبل بن علي الخزاعي ، الديوان ، تج: ابراهيم الأميوني ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط١، ١٩٩٨، ص ٥٢

[١٦] الشريف الرضى ، الديوان ، ص ١٦٨

[١٧] البوصيري : الديوان ، ص ٤٢٠

[١٨] ابن جابر الأندلسي ، محمد بن أحمد بن علي ، ديوان نظم العقدين في مدح سيد الكونيين أو الغين في مدح سيد الكونيين ، تحقيق : أحمد فوزي الهيب ، دار سعد الدين للطباعة ، ط١، ٢٠٠٥، ص ٤٩١
ابن نباتة المصري ، الشيخ جمال الدين الفاروقي ، الديوان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، ص ١

[١٩] المصدر نفسه ، ص ١٨٠

[٢٠] ابن نباتة المصري ، الديوان ، ص ٢٩٠

[٢١] الصدر نفسه ، ص ٤٢٨

[٢٢] ابن الجنان الأنصاري ، الديوان ، دراسة وتحقيق : منجد مصطفى بهجت ،ص ٧٤

[٢٣] المصدر نفسه ، ص ٣٥٠

[٢٤] عبد الحميد عبد الله الهرامة ، اثار أبي زيد الفازازي ، ص ٣٧

[٢٥] ابن الأبار ، أبو عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن بكر القضاعي البلنسي ، الديوان ، تحقيق : عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر والتوزيع ، دط، ١٩٨٥م ، ص٥٨

[٢٦] عبد الحميد محمود ، المعجزة والاعجاز في سورة النمل ، دار القلم للطباعة والنشر ، دمشق ، دط ، دت ، ص ١٥

[٢٧] سورة البقرة ، الاية ٢٣

[٢٨] المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ٣، ص٢٢٩

[٢٩] عبد الوهاب بن منصور ، أعلام المغرب العربي ، ج ٣ ، المكتبة الملكية ، الرباط ، ط ١، ١٩٧٩م ، ص٣٢٢

[٣٠] لسان الدين بن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج٢، ص ٢٣٥

[٣١] ابن الجنان الأنصاري ، الديوان ، ص ٧٧

[٣٢] المصدر نفسه ، ص ٧٥

[٣٣] عبد العزيز عبد المجيد ، ابن الأبار حياته وكتبه ، طبعة الحسنية ، تطوان المغرب ، دط ، ١٩٥٤م، ص ٣٦٧-٣٦٨

[٣٤] ابن الأبار ، الديوان ، ص ٦٥

[٣٥] لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج ٣ ، ص ٣١٥

[٣٦] المصدر نفسه ، ص ٣١٥

[٣٧] ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٨

[٣٨] ابن جنان الأنصاري ، الديوا ن ، ص ٧٤

[٣٩] حازم القرطاجني ، الديوان ، ص ٥٨

[٤٠] عبد العزيز عبد المجيد ، ابن الأبار حياته وكتبه ، الطبعة الحسنية ، تطوان الرباط ، ١٩٥٤، ص ٣٦٧_٣٦٨

[٤١] ابن الأبار ، الديوان ، ص ٣٦٥

[٤٢] لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج٣، ص ٢٣٥

[٤٣] – المصدر نفسه ، ص ٣١٥

[٤٤] _ حازم القرطاجني ، الدوان ، ص ٨٩

[٤٥] – سورة الشرح ، الاية ٤

[٤٦] – محي الدين بن عربي ، ترجمان الأشواق ، ص ٣٣

[٤٧] _ المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ص ٤٨

[٤٨] – المصدر نفسه ، ص ١٩٥

[٤٩] _ عبد الحميد عبد الله الهرامة ، أثار أبي زيد الفازازي ، ص ٣٧

[٥٠] _ لسان الدين ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ج٢، ص ٢٣٦